الفصل الرابع

إخفاق الفلسفة

obeikandl.com

obeikandl.com

١

إن البحث فى هذا الموضوع يستلزم إيجازاً موجزاً خاصًّا ببيان بعض الأمور التى تتعلق به ، كتعريف الفلسفة مثلاً ، وبيان نشأتها ومقاييسها التى تلجأ إليها لفضِّ الخلاف ، إذا ثار ، حول موضوع من الموضوعات .

ولعلنا لا نكون بعيدين عن الصواب إذا عرَّفنا الفلسفة البحتة فى وضعها الراهن بأنها : البحث العقلى فى ما وراء الطبيعة ، وفى الأخلاق ، والبحث فى قيمة المعرفة : وسائل ونتائج . وهذا التعريف من المرونة بحيث يضيق ويتسع تبعاً لضيق موضوع الفلسفة أو اتساعه فى عصورها المختلفة .

- متى نشأ هذا النوع من البحث ؟

ربما لا يكون الإنسان مخاطراً إذا زعم أنه نشأ مع نشأة الإنسان، نشأ كخطرات تمر عابرة ثم تنتهى ، وتلحُّ تارة ثم تزول ، وتكثر فى فترات محدودة وتقل فى أخرى ، غير أنها فى كل أحوالها وظروفها المختلفة عابرة لا تدوم ، ولكن البحث الفلسفى العقلى المنظَّم المرتَّب المُحْكَم؛ إنما نشأ فى اليونان ؛ ونشأ فى اليونان بالذات لأن الدين اليونانى لم يكن له من الثبات واليقين ، ومن القوة والسيطرة، ومن التمكُّن فى النفوس ، والتغلغل فى الأرواح ، ما يجعل الناس يطمئنون إليه ويستسلمون ، فى ما يختص بالعقيدة أو الإيمان بما وراء الطبيعة ، وفى ما يختص بالأخلاق أو بتحديد الخير .

والظاهرة الملاحظة فى كل الأوساط على مر التاريخ : أنه كلما كان الدين

يقينيًا ثابتاً ، وكلما كان الإيمان قويًا مسيطراً ، قَلَّ النزوع إلى الفلسفة ، وقَلَّ البحث العقلى فى مجالات الغيب .

أما السبب فى ذلك : فهو من الوضوح بحيث لا يحتاج إلى بحث عميق ، وذلك أن موضوع الفلسفة هو نفسه- على التقريب - موضوع الدين : فالدين يُجيب - فى اختصار أو فى استفاضة - عن أسئلة للفلسفة ، يجيب عنها فى صورة حاسمة عازمة لا تعرف التردُّد ولا الشك .

والمؤمن الذى غلب عليه الإيمان ، وسيطر على نفسه الدين ، لا يستسيغ أن يتجاوزه ويتفلسف ؟

.. ولماذا يتفلسف ؟

إنه مؤمن ، وإنه مؤمن بقضايا دينه ، ولا يخالجه الشك قَطُّ فى صحة هذه القضايا . فهل يعقل - والأمر كذلك - أن يترك اليقين؟ أعنى قضايا الوحى المعصومة ، ليحاول عن طريق العقل البشرى أن يدرس الموضوع من جديد ؟

إنه إن فعل ذلك ؛ فمعناه أنه يشك فى قضايا دينه ، شاعراً بذلك أو غير شاعر .. معناه أنه يترك التمسك بهداية الله ، ليتمسك بهداية البشر ، ومعناه أنه يترك اليقين إلى الظن : لأن نتائج العقل البشرى فى مجالات ما وراء الطبيعة ظنية كلها.

ونشأ التفلسف فى صورة نظرية منظَّمة فى اليونان لأول مرة فى عهدها بالحضارة الثقافية لضعف التديُّن فيها ، ولم ينشأ التفلسف فى البيئات الإسلامية لأول عهدها بالتحضُّر الثقافى لقوة التديُّن فى الأمة الإسلامية الناشئة .

ودراسة تاريخ التفلسف ، ونشأته ، والعوامل المؤثرة فيه فى الأمة اليونانية والأمة الإسلامية : يفيد كل الإفادة ، إذا أردنا ملاحظة ظاهرة الإيمان ، من حيث القوة والضعف ، وأردنا ملاحظة ظاهرة التفلسف من ناحية الازدهار أو الذبول . فالأمة الإسلامية فى نشأتها لم تعرف التفلسف ، وإنما استسلمت للدين استسلاماً مطلقاً .

ومضى القرن الأول بأكمله والمسلمون يلتمسون فى كتاب الله تعالى ، وسُنَّة رسوله ﷺ ، جميع الحلول للأمور التى تعرض لهم ، والأسئلة التى تثور فى نفوسهم .

وحين بدءوا فى ترجمة التراث الأجنبى ـ فيما بعد ـ بدءوا يترجمون الكتب التى تتصل بالجانب العملى كالطب مثلاً ، أو الكيمياء ، أما ما وراء الطبيعة وأما الأخلاق فإنهم كانوا يتحرَّجون كل التحرُّج من ترجمتها اكتفاء واعتزازاً بما عندهم فى ذلك من وحى معصوم .

واستمروا على ذلك إلى أن كان عهد المأمون فبدءوا ـ بأمر منه ـ يترجمون فى مجال ما وراء الطبيعة ، ومجال الأخلاق ، وبدأ التفلسف البحت ، وبدأنا نلتمس فتور الإيمان كأساس من أُسس التفلسف وكنتيجة من نتائجه أيضاً .

وبداية التفلسف عند المتفلسف هى بداية التمرد الدينى ، وبداية التوفيق بين الدين والفلسفة هى بداية النفاق فى المحيط الفلسفى.

وما من شك فى أن محاولة التوفيق بين النتاج الإنسانى فى مجال ما وراء الطبيعة وهو « الفلسفة » وبين « الوحى الإلهى » : إنما هى مهزلة من المهازل الكبرى التى تلجأ إليها الإنسانية حينما تريد تغطية انحراف صارخ أرضت به كبرياءها وغرورها ؟!

إنَّ تفلسف المسلم : نوعٌ من الكبرياء والغرور ، ونمطٌ من الاعتداد بالنفس اعتداداً يجعلها لا تستسلم للغير ، حتى لو كان ذلك الغير هو الوحى الإلهى والمبادئ الربانية .

والتوفيق معناه أن تضع الطرفين موضع التساوى من حيث القيمة الاعتبارية ثم تبدأ تجر أحدهما إلى الآخر تحت ستار من التأويل والتفسير والشرح وعدم اعتبار المعنى الظاهر والالتجاء إلى معانٍ باطنية ، قد لا تُقِرُّها اللغة أو العُرْف أو النظرة السليمة .

أو تحاول ـ بطريق آخر ـ أن تجعل كلاً منهما يتنازل للآخر عن بعض مجالاته أو بعض ألوانه ، أو بعض مفاهيمه حتى يلتقيا وقد اختصر كل منهما فى جانب من جوانبه .

وموقف المؤمن الصحيح يتمثل فى المبادئ التى حدَّدها الرسول - صلوات الله وسلامه عليه - تحديداً تامًّا : « **اتَّبعوا ولا تَبتدعوا فقد كُفيتم** » .

لقد أنزل الله فى « ما وراء الطبيعة » وفى « الأخلاق » ما فيه كفاية تامة للمؤمن .. والمؤمن غير محتاج لما وراء ذلك .

﴿ **الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلامَ دِينًا** ﴾ (١) .

وأول مادة فى الإسلام إنما هى المادة التى تؤخذ من تسميته نفسها : هى إسلام الوجه لله ، وإلقاء القياد له ، والإذعان التام لما جاء به ، والخضوع الكامل لتعاليمه ومبادئه فى الأخلاق ، وفى ما وراء الطبيعة .

فإذا تمرد المؤمن على هذه المبادئ وبدأ يلقى بقياده إلى عقله - حتى لو كان يريد أن يصل عن طريق ذلك إلى نفس النتيجة التى أتى بها الدين - فإنه منحرف عن هدى العبودية لله ، إلى هدى العبودية للعقل . وهو يفعل ذلك تقديسًا لنفسه ، وذلك نوع من عبادة الذات أو نوع من غرور العقل !

ونأتى الآن إلى نتائج الفلسفة ، فنتساءل ناظرين إلى الواقع التاريخى : لماذا الفلسفة ؟ إننا إذا نظرنا إلى النتائج فى صورة عامة شاملة وفى صراحة لا تلبيس بها ، فإننا نجد نتائج الفلسفة تصوِّر تصويراً تامًّا جميع أنواع الضلال والانحراف والوهم والخداع والزيف والباطل ، كما تصوِّر فى خلال ذلك الحق والصواب أحياناً ولكن الأوهام فى هذه النتائج أكثر من الحقائق : ذلك أن الفلسفة نتاج شخصى يرتبط بالشخص ، من حيث البيئة ، والعصر ، والثقافة ، والذكاء ، ودرجة التَّديُّن .

---

(١) سورة المائدة : ٣ .

فهى ، إذن - لهذه الاعتبارات ـ نتاج نسبى يتسم بالنسبية منذ المبدأ .

وما دام الأمر كذلك فإنه لا مناص من الاختلاف والتعارض ، والتناقض والتضارب !

ونحن إذا نظرنا فى تاريخ الفلسفة منذ نشأتها نجد أنه لا يوجد فى أى موضوع من الموضوعات ما يمكن أن نسميه بالرأى الفلسفى ، وهذه ظاهرة لها مغزاها العميق . وليس بشطط أن يؤكد الإنسان أنه لا توجد مسألة واحدة اتفقت آراء الفلاسفة على حلٍّ موحَّد لها .

إن الرأى الفلسفى معدوم فى المحيط الفلسفى ، والمسائل التى بدأ قدماء فلاسفة اليونان يبحثون لها ـ عقليًّا ـ عن حلٍّ لا تزال معلَّقة حتى الآن ، يحاول الفلاسفة المحدثون بعد مضى أكثر من خمسة وعشرين قرناً إيجاد حلٍّ لها .

ومن سخرية الأقدار بالفلاسفة : أن ما سمَّاه أفلاطون بـ: «اللهو الجِدِّىّ» وهى المسائل التى وضعها زينون الإيليائى يبرهن بها على أن الوجود ساكن لا يتحرك ، ومَلأٌ لا خلاء فيه ، هذه المسائل التى تتنافى مع بديهة الحسِّ البديهية ، ومع شعور الفطرة السافر .. من سخرية الأقدار أن الفلاسفة : لا يزالون يحاولون إلى الآن إيجاد حلٍّ عقلى لهذه المسائل ، يوفِّقون فيه بين العقل والحسِّ ، أو بين المنطق والفطرة السليمة ، مجرد الفطرة ، الفطرة فى أى مكان وجدت .. فلا يجدون إلى ذلك سبيلاً .

من أين ؟ وإلى أين ؟ ولِمَ ؟ لا تزال حتى الآن ، وربما إلى الغد - بل ربما إلى أن ينتهى العالم - معلَّقة تطلب الحل عقليًّا .

وما دام فى الفلاسفة من ينكر إنكاراً تامًّا ما وراء الطبيعة ، ولا يعترف بالخير العام والفضيلة المحدَّدة ، ومن يُثبت كل ذلك ؛ فلا أمل قَطُّ فى أن يوجد الرأى الفلسفى .

ولكن ، أَمَا يوجد مقياس عقلى يقيس به الفلاسفة الآراء فيهتدون بواسطته إلى الصواب ، وبذلك يزول الخلاف ويوجد الرأى الفلسفى ؟.. عن ذلك نريد أن نتحدث .

٢

إن الإنسان يبحث ـ منذ أن وُجد ـ عن الغيب ، ويجرى وراء المجهول ، إنه يريد أن يكشف القناع ، ويرفع الحُجُب التى تحجبه عن عالم الغيب ، إنه يريد أن يصل إلى الله ، ويتصل به اتصالاً مباشراً ، وينغمس بنفسه فى عالم الإلهية ، ويحسُّ بروحه أنوارها ، وكان الطريق أمامه مرسوماً واضحاً ، رسمه الأنبياء ـ عن طريق الوحى ـ ووضَّحه الرسل ، عليهم الصلاة والسلام ، لقد صوَّرته الرسالات الإلهية ، إنه العبودية الكاملة لله ، إنه إلقاء الإنسان بنفسه فى المحيط الإلهى ، إنه اتجاه العبد إلى الربانية حتى يصير ربانيًّا ، إنه التخلُّق بأخلاق الله ، والوقوف ببابه ، سبحانه، حتى يتقبَّله الله ويدخله فى جنات المعرفة ، وفى رياض الحقائق .

وسار الأمر على ذلك فى الحضارات القديمة .

لقد كان هذا النمط هو الذى يسير عليه كهنة « عين شمس » - مثلاً - فى الحضارة المصرية . وكان هذا النمط هو الذى يسير عليه البراهمة فى الديانة الهندية . وكان هذا النمط هو الذى يسير عليه طلاب معرفة الحق فى العصور القديمة على اختلاف الأزمنة والأمكنة .

وما كان يتأتى قَطُّ أن يدور بخلد أحد فى هذه الحضارات أن يكون هناك طريق آخر لمعرفة ما وراء الطبيعة غير هذا الطريق ، إنهم كانوا يرون أن عالم الغيب من الأسرار الإلهية ، يمنح الله معرفته لمن يشاء من عباده وهو لا يمنح هذه المعرفة إلا لهؤلاء الذين اتَّبعوا الصراط المستقيم الذى رسمه الله سبحانه .

فلما كان العهد اليونانى قد بدأ بـ (الأورفية) التى سارت على نفس الطريق القديم وبنفس الأسلوب الشرقى فى الوصول إلى المعرفة .

وتلقَّف ذلك الأسلوب وتلك الطريقة : «فيثاغورس» ، فكوَّن « المدرسة الفيثاغورية » التى رأت أن معرفة ما وراء الطبيعة : لا تأتى عن طريق (الذهن يعمل ، والعقل يفكر ، والخيال يحلِّق) كلاَّ ، إنما تتأتى عن طريق الطهر الكامل

فى الأخلاق ، والزهد المتبصِّر فى الماديات ؛ حتى لا يصير الإنسان عبداً لها ، إنها لا تتأتى إلا عن طريق العبودية التامة لمانح المعرفة وواهب الخير .

وقد سارت المدرسة الفيثاغورية على أسلوب الصفاء: كوسيلة.. وعمَّموا فى ذلك حتى لقد شمل مذهبهم نوع الملابس ولونها ـ وهو البياض ـ وأنواع المأكولات ومقاديرها ، وأوقات الصيام ، وكيفيته .. ولقد سلَّمت الفيثاغورية علمها إلى الأفلاطونية التى سلَّمته إلى الأفلاطونية الحديثة .

ولكنه بجوار هذا الأسلوب فى المعرفة الخاصة بعالم الغيب نشأ أسلوب آخر، أسلوب مبتدع ، أسلوب لم يكن موجوداً من قبل ، وهو أسلوب يُعَدُّ فى ذلك الزمن انحرافاً عن الأسلوب التقليدى المعروف .

ذلك الأسلوب : هو محاولة معرفة عالم الغيب عن طريق العقل: يتروَّى ، ويفكر ، ويبحث ، ليصل عن طريق ذلك إلى الفكرة الصحيحة عن عالم الإلهية سلباً وإيجاباً ، بدأ بذلك طبيعيو اليونان ، فلما جاء أرسطو مثَّل هذا الاتجاه كأقوى ما يكون التمثيل.

وبدأ ـ منذ ذلك الحين ولأول لحظة - الفرق واضحاً بين الأسلوبين .

فالأسلوب الأول يؤمن إيماناً تامًّا بعالم الإلهية وكل رجائه أن يصل إلى أنواره وأن يحصل على قبس منه ، وأن ينغمس فى محيط رحمته .

أما الأسلوب العقلى المبتدع ، فإنه لا يؤمن بشىء ، ولا يعتقد شيئاً ، ويفرض تساوى الأمور ، ولا يرجِّح سلباً ولا إيجاباً ، ويلقى بقياده إلى عقله ، ويستسلم إلى ذهنه .

ولكنه منذ العهد الأول لهذا الاتجاه العقلى : لاحظ أصحابه ، ولاحظ الباحثون على وجه العموم : أمرين ، ربما كان أحدهما نتيجة للآخر :

أما أولهما : فإنه هذا الاختلاف التام بين الباحثين عقليًّا ، أو المتفلسفين ، فيما وصلوا إليه من نتائج ؛ إنهم اختلفوا حتى مع اتحاد البيئة ، واتحاد الزمن ! ..

لقد جَهَّلَ بعضهم بعضاً ، وخَطَّأَ كلٌّ منهم الآخر ، وجَزَمَ كلٌّ منهم بأنه هو وحده على الصواب وأن غيره على الخطأ ، واحتقر كلٌّ منهم الآخرين .

ولقد وصل الأمر بالفيلسوف « هرقليطس » أن كان الناس فى رأيه ، على ما يذكر كتاب قصة الفلسفة اليونانية : « قطعاناً من الغنم حقَّت عليهم الضِّعة والمهانة » ، بل جنح به الكبرياء إلى احتقار أعلام الفكر من أسلافه : فـ «أكزنوفنس» و «فيثاغورس» نكرتان جديرتان بالإهمال ، و «هومير» فَدْمٌ غبيٌّ يجب أن تُلهب ظهره عذابات السياط ، و « هزيود » لا يرتفع كثيراً عن غمار السوقة ، فهو واحد منهم « لا يفرِّق بين الليل والنهار » ، فإذا كان يُنزل قادة الفكر تلك المنزلة ؛ فأين يقع الشعب من نفسه ؟ !

هم « الأنعام تُؤْثِرُ الكَلَأَ على الذهب» ، وهم « كلابٌ تنبحُ كلَّ مَنْ لا تعرفُه » اهـ .

أما الأمر الثانى الذى لاحظه الباحثون : فهو أن العقل مختلف من شخص لآخر ، وإذا كانت قد وضعت فى العصور الحديثة مقاييس للذكاء تشبه أن تكون محدودة ، فإن اختلاف العقول فى بنى البشر لا يحتاج إلى ملاحظة مُرَوَّاة .

ويمكن إجمال الأمرين فى عبارة مختصرة ، وهى : أن اختلاف العقول أدى إلى اختلاف النتائج .

على أن اختلاف العقول فى الأفراد يتضاعف بالمؤثرات الخارجية : فالبيئة ، والوسط ، والثقافة ، والأصدقاء ، والجو ، والمصالح .. كل ذلك وغيره : يؤثر ـ إلى ما شاء الله – فى العقول ، وفى النتاج الذى تنتجه .

ومع توالى الزمن تكثر المذاهب ، وتتعدَّد الفِرَقُ ، ويمكن أن يقال ، بدون مبالغة : إن المذاهب تتعدَّد بمقدار ما يكون فى العالم من فلاسفة عقليين .

وبمجرد أن أسفر هذا الأسلوب العقلى ، فى معرفة ما وراء الطبيعة ، عن اختلاف العقول واختلاف النتائج ، أخذ أنصاره يبحثون عن مقياس عقلى

يضبط العقل ويعصمه من الخطأ . وتمخَّض عن هذا المقياس : عقل أرسطو ؛ فوضع مقياساً تعصم مراعاته الذهن من الخطأ فى الفكر ، هو : « المنطق » .

بيدَ أنه سرعان ما لُوحِظَ أن المنطق : لم يعصم ذهن الذى ابتدعه وأن هذا الذى ابتدع طريق العصمة : أخطأ ، وأخطأ ، وأخطأ !

ثم لوحظ أن جميع الذين فُتنوا بالمنطق فى العصر اليونانى ، واستخدموه فى كتاباتهم لم يعصمهم من الخطأ .

وأخذ الباحثون قديماً وحديثاً : يفكرون فى الخلل الذى أدى إلى عدم قيام المنطق بما يراد منه ، وهو : العصمة ، فوجدوا الخلل ولاحظوه ، وحاولوا له علاجاً فلم يتأتَّ لهم ذلك .

لقد كان الخلل فى « المنطق » من ناحية الشكل ، ومن ناحية الجوهر[1]. وأصبحت كل قيمته : أنه مِرَانٌ عقلىٌ على أشكال عدة وضروب منتجة أو غير

---

(١) سبق أن كتبنا فى تعليقنا على كتاب « المنقذ من الضلال » ما يلى :

« قد تقول : إن العقل ـ وهو أساس مذهب المعتزلة ، ومذهب العقليين عموماً ـ له مقاييسه ، وله موازينه التى لا يتطرق إليها الخلل . إن المنطق القديم منه والحديث ، آلة تعصم مراعاتها الذهن من الخطأ فى التفكير .

ولقد جاهدت الإنسانية جهاداً طويلاً حتى جعلت من الاستقراء والقياس أداتين للفصل بين الهدى والضلال، وللتفرقة بين العماية العمياء والصواب الأصوب .

فالاستقراء والقياس - إذن - هما وسيلة العقل ، وهما فيصل التفرقة بين الغى والرشاد . فمن التجنى على المعتزلة وعلى العقليين - وقد اعتمدوا عليهما - أن نصم مذاهبهم بمجافاتها للطريق الأقوم .

إن وجهة النظر هذه تبدو وكأنها لاغبار عليها .. بيد أنها عند النظرة الفاحصة تتزلزل وتنهار .

أما أولاً : فلأن المعتزلة أنفسهم والعقليين عامة - مع اعتمادهم على الاستقراء والقياس - قد اختلفوا فرقاً وأحزاباً لا تحصى ، وكل فرقة أو شيعة تتبع رئيساً وصل به « استقراؤه » ووصل به «قياسه » إلى نتائج معينة ، تختلف - فى قليل، أو فى كثير - عن نتائج استقراء آخر، وقياس مختلف.

وأما ثانياً : فلأن هذه الفكرة : « المنطق يعصم الذهن من الخطأ فى التفكير ، أو المنطق وسيلة التفكير الصحيح» : فكرة خرافية ، أكثر منها حقيقة .. وذلك يحتاج إلى تبيان :

إن المقاييس هى كما ذكرنا : الاستقراء ، والقياس .

أما الاستقراء - وهو أساس المفهومات العامة والقضايا الكلية - فإنه :

١ - مبنى كله على الحس : إنه استقراء محسَّات ، إنه تتبع جزئيات ،لا تخرج عن نطاق الواقع، أما المساتير فهو برىء منها كل البراءة ، لأنها لا تدخل فى دائرة اختصاصه : فهو عاجز عن أن يخترق الحجب ليصل إلى ما وراء الطبيعة .

٢ - ثم إن الاستقراء : تام ، وناقص . والتام - كما يعترف المناطقة لاغَناء فيه ، ولا فائدة . أما الناقص - وهو المهم فى نظرهم - فإنه - فى رأيهم أيضاً - ظنى ، وهو - لذلك - عرضة للتغيير ، فى كل آونة .

« كل معدن يتمدد بالحرارة » تلك قضية من قضايا الاستقراء ، إنها قضية عامة شاملة ، ولكن المعادن لم تُكتشف - بعد - بأكملها ، ومن الجائز أن يُكتشف فى الغد معدن لا يتمدد بالحرارة : إنها - إذن - قضية مؤقتة ، ظنية ، تتبرأ من اليقين الفلسفى . =

منتجة ، ولا نتيجة له ، اللهم إلا إذا كانت السياحة الذهنية فى الأشكال والضروب .

وقد وضَّح ذلك - بما لا يحتاج إلى مزيد - علماء النهضة الحديثة : أمثال «بيكون » و «جون ستيوارت مل » ، وأصبح المنطق الصُّورى الآن لا يساوى

= والعلم لا يعرف الكلمة الأخيرة فى مسألة من مسائله وإنما حقائقه كلها إضافية موقوتة ، لها قيمتها ، حتى يكشف البحث عما يزيل هذه القيمة أو يغيرها» [1] .

وهكذا قضايا الاستقراء ، إنها :

١ - خاصة بالطبيعة، ولا شأن لها بما وراءها .

٢ - ظنية ، لا تعرف اليقين .

أما القياس :

١ - فإنه مبنى على الاستقراء ، إذ هو منطوٍ دائماً على كلية ، كلية استقرائية ، ومادامت قضايا الاستقراء ظنية - كما رأينا - وميدانها المحسَّات ، فنتائج القياس ظنية كذلك ، وميدانها المحسَّات .

٢ - إن المناطقة لا يشترطون فى مقدمات القياس أن تكون مسلَّمة صادقة فى نفسها ، وإنما يشترطون أن يسلِّمها المتجادلون فحسب ، وقد تكون - كما يقول صاحب « البصائر النصيرية»: منكرة كاذبة فى نفسها ، وفى هذه الحالة يكون القياس صحيحاً ونتيجته باطلة .

وإذا كان الأمر كذلك فما فائدة القياس ؟ ما قيمته إذا كان لا يعوَّل فيه إلا على أن تكون المقدمات مستوفية لشروط الإنتاج بحيث تستلزم النتيجة وإن لم تطابق النتيجة الواقع ؟ ما قيمته إذا كان لا يحفل بصدق النتيجة أو كذبها !

إنك إذا قلت : الكثير من العلم يؤدى إلى الاستقلال الفردى ، وكل ما يؤدى إلى الاستقلال الفردى مضرٌّ بالمجتمع ، فالكثير من العلم مضرٌّ بالمجتمع ، كان هذا قياساً صحيحاً فى نظر المناطقة. وإذا قلت : الكثير من العلم يؤدى إلى التماسك الاجتماعى ، وكل ما يؤدى إلى التماسك الاجتماعى مفيد للمجتمع ، فالكثير من العلم مفيد للمجتمع ، كان هذا أيضاً قياساً صحيحاً عند المناطقة ، ومع ذلك فالنتيجتان متعارضتان .

٣ - ومع كل هذا فالقياس استدلال دورى فاسد ، ذلك أن العلم بالنتيجة فى نحو قولنا : «محمد إنسان ، وكل إنسان ناطق ، فمحمد ناطق » متوقف على العلم بالكبرى ، والعلم بالكبرى متوقف على العلم بالنتيجة لأنك لا تستطيع أن تحكم بالناطقية على جميع أفراد النوع الإنسانى، إلا إذا تأكدت من ثبوت الناطقية لمحمد . ولو كنت فى شك من ذلك لما استطعت تعميم الحكم على جميع أفراد الإنسان . وإذن : تكون الكبرى متوقفة على النتيجة ، والنتيجة متوقفة على الكبرى ، وعلى ذلك يكون القياس : استدلالاً دوريًا فاسداً ، فلا يعوَّل عليه .

٤ - وأخيراً ، فالمفروض : أن نتيجة القياس جديدة كل الجدة ، إنها استنتاج مجهول (هو النتيجة) من معلوم (هو المقدمات) .

ولكن النتيجة متضمنة فى المقدمات ، إنها ليست مجهولة ، والقياس- إذن - لا يؤدى إلى معرفة جديدة ، أو إلى استنتاج مجهول من معلوم . إنه - إذا أردت الدقة - : استنتاج معلوم من معلوم .

- تلك هى موازين العقل .. وهى موازين لا غَناء فيها ولا جدوى منها .

العقل- إذن - قاصر فيما يتعلق بالأخلاق ، وهو قاصر على الخصوص فيما يتعلق بالإلهيات .. ومن هنا كانت الحكمة فى نزول الأديان .

ومن هنا كان السبب فى اقتصارها على الأخلاق والإلهيات .

وإذا كانت قد تحدثت فى التشريع فإن التشريع داخل فى نطاق الأخلاق .

---

(١) انظر مقدمة « فجر الإسلام» لأحمد أمين .

«شَرْوَى نَقِير» فى مقاييس الحقيقة أو فى عصمة الإنسان وضاع الأمل العذب الذى تعلقت به الإنسانية زمناً طويلاً متخيلة أن الإنسان سيصل بالمنطق إلى العصمة المطلقة.

وكما تعلقت أعين الإنسانية بمنطق أرسطو زمناً فقد تعلقت أعينها بمنهج (ديكارت) زمناً آخر. ولقد طنطن ديكارت بمنهجه وأشاد بأنه تلقَّاه ذات ليلة، فغمره فرح لا يوصف، واعتقد أن مشكلة المعرفة الإنسانية قد حُلَّت، سواء أكان ذلك فى الدين أم فى الطبيعة.

واستخدم ديكارت منهجه، وتحدَّى به، ولكن سرعان ما تبين خطؤه فى الطبيعة، وخطؤه فى كثير من النتائج التى وصل إليها.

وضاع مرة أخرى أمل الإنسانية الذى مدَّت إليه أعينها فترة من الزمن.

ونتساءل الآن: أحقًّا لم تصل الإنسانية إلى مقياس عقلى صحيح للفصل الفاصل بين الصواب والخطأ فى عالم ما وراء الطبيعة، وفى عالم الأخلاق؟

والجواب عن هذا السؤال: حاسم جازم: وهو أن الإنسانية لم تصل إلى مقياس عقلى تفرِّق به بين الهدى والضلال فى عالم ما وراء الطبيعة، وأن هذا العالم لا يزال - بالنسبة للعقل - من المساتير المحجوبة التى لم يُرفع الحجاب عنها إلا للأنبياء عليهم الصلاة والسلام عن طريق الوحى الإلهى، ومما لا شك فيه: أن جميع مذاهب الفلسفة - فيما يتعلق بعالم الغيب - ظنية إن لم تكن وهمية.

أما عالم الأخلاق، أما دنيا السلوك، إنه كما أخفق المنطق فى مجالاتها فقد أخفقت جميع المقاييس البشرية ومن بينها مقياس «الضمير».

* * *

٣

خرافة الضمير

(أ)

إذا بحثنا فى معاجم اللغة العربية عن معنى كلمة «الضمير» فإننا لا نجد-

من بين معانيها - المعنى الأخلاقى الذى نفهمه من هذه الكلمة فى العصر الحاضر ، ونستعملها فيه ونطلقها عليه ، وهى لم ترد بهذا المعنى فى القرآن أو الحديث أو فى الشعر العربى القديم ، إنه معنى مُحدث ، أخذناه عن الغرب فى العصور الحديثة .

وقد استعمله الغرب كثيراً ، وأشاد به ، حينما أراد أن يضع للأخلاق أساساً ومقياساً منفصلين عن الدين .

وكان ذلك على الخصوص ، حينما أراد الغرب أن يتخلص من سيطرة الكنيسة ، وأن يخرج على سلطاتها ، ويثور على قواعدها وأوضاعها ، ويفرِّق أو يفصل بين الدين والدولة ، وكان الدين - إذ ذاك - أساساً ومقياساً للأخلاق . ولا مناص - إذا أُرِيدَ التخلُّص من الدين - من البحث عن أساس ومقياس للأخلاق؛ فلابد ـ لاستقرار المجتمع وهدوئه وأمنه ـ من أن تستقر الأخلاق وتقوم على دعامة قوية ، وإلا لانهار المجتمع وناله الفساد من جميع أقطاره .

وتلفَّت زعماء الثورة على الكنيسة يميناً وشمالاً لعلهم يجدون ما يقوم مقام الدين وقد تحللوا منه بالنسبة للأخلاق ، فوجدوا ـ كسراب يتألق ـ الضمير ، فتشبثوا به ، وأثنوا عليه ، ورفعوا من شأنه، واعتبروه أساساً ومقياساً للأخلاق.

وما من شك ـ كما يقول العالم الفرنسى الكبير الأستاذ أندريه كريسون -: «أن الأكثرية من الناس ، بل ربما جميعهم ، يكون لهم ضمير متى أدركوا سن الرشد . فحينما يشرعون فى عمل ، فإنهم يشعرون بأن هذا العمل إما أن يكون واجب التنفيذ ، وإما أن يكون واجب الترك ، وإما أن يكون من قبيل المباح . وحينما يقومون بالعمل - سواء راعوا الضمير أو لم يراعوه ـ فإنهم يشعرون إثر القيام به بمشاعر مختلفة . فإذا كانوا قد خضعوا لحكم الضمير، فيما أوجبه ، فإنهم يشعرون بتقدير لأنفسهم تصحبه لذة ظاهرة : الرضا الأخلاقى .

أما إذا كانوا لم يستجيبوا لصوت الضمير ، فإنهم يشعرون باحتقار لأنفسهم

شديد الإيلام : «تبكيت الضمير »[1].

ورأى القائمون على الثورة ضد الكنيسة -إذن - أن يستعيضوا عن الدين بوحى الضمير ، وأن يتخذوا من « وحى الضمير » الأساسَ الذى لا يخطئ والمقياس الذى لا ريب فيه بالنسبة للأخلاق .

(ب)

وحينما هدأت الأمور فى الغرب ، وعادت الحياة إلى مجراها الطبيعى، بعد الصراع العنيف ، بين الكنيسة والثوار ، الذى دام فترة طويلة من الزمن ، أخذ العلماء يراجعون أنفسهم ، ويدرسون-فى هدوءٍ ودعةٍ - المبادئ التى قامت عليها الثورة المنتصرة ، والأهداف التى حُدِّدت ، والغايات التى رُسمت ، والقواعد التى خُطِّطت ، ثم هَذَّبوا فى كل ذلك وغَيَّروا وبَدَّلوا . وكان مما راجعوا أنفسهم فيه : مسألة «الضمير » .

ويقول أندريه كريسون :

« ولما استعرضوا التاريخ والوقائع والمشاهدات ، يستنيرون بها فى أمر الضمير رأوا : أن الناس فى كل العصور ، وفى جميع الأقطار، يستشيرون ضمائرهم ، ولكنها لا تُسمعهم جميعاً لحناً واحداً ؛ إذ إن ما يظهر عدلاً وخيراً لبعض النفوس المخلصة فى عصر خاص ، لا يظهر عدلاً ولا خيراً لنفوس أخرى ، هى أيضاً مخلصة ، ولكنها عاشت فى عصر آخر ، أو مكان آخر »[2].

أما إذا أردنا أمثلة على ذلك فإننا سنجدها كثيرة ، عندما نوازن بين أحوال الضمير خلال مختلف العصور .

ويضرب لنا الأستاذ أندريه كريسون الأمثلة الكثيرة :

«ففى العصور القديمة اليونانية/ اللاتينية كان نظام الرِّقِّ مشروعاً : إن أشرف القلوب -إذ ذاك -كانت تجد من الطبيعى ، أن يباع الرجال والنساء والأطفال وأن يعاملوا معاملة السوائم » .

---

(١) انظر : « المشكلة الأخلاقية والفلاسفة » لأندريه كريسون .

(٢) المصدر السابق .

ويقول :

«وكانت القوانين الرومانية القديمة تجعل من المرأة والأطفال ملكاً للزوج ، كما لو كانوا أمتعة وأنعاماً ؛ لهذا كان للأب ، من بين الحقوق الأخرى ، الحق فى أن يعرض ابنته المولودة حديثاً ، فى السوق العام ، إذا كانت له بنت أخرى . ولسنا بحاجة إلى أن نذهب بعيداً ؛ فها هم أولاء أسلافنا ، كانوا يرون شرعية تطبيق العقوبة على مجرد ظن الجريمة . وكانوا بلا أدنى قلق يشاهدون الفرد مشنوقاً من أجل اختلاس تافه»[1].

ولكننا عندما نوازن بين أحوال الضمير ، فى العصر الواحد فى أقطار مختلفة ، فإننا نجد أيضاً فروقاً لا تكاد تُحصَى ولا تُعَدُّ .

« فالشعوب التى يسود فيها نظام تعدد الزوجات ، لا تَعتبر مَنْ يتزوج بعدد منهن بريئاً فقط ، بل إنها فوق ذلك لَتعدُّ هذا العمل منه سامياً ومشرِّفاً إلى حد كبير ، وإن مشاعر الحياء القوية جدًّا عند الشعوب المتحضرة لا تهز قليلاً ولا كثيراً مثل زنوج الكونغو وسكان جزائر (تايتى)» [2] .

ويقول :

« ومن ناحية أخرى ، فإنه لا شىء أغرب من مشاهدة بعض الالتزامات التى تقتضيها حياة بعض البدائيين ، وليس من المجهول ما يعدُّ من المحرَّمات الدينية عندهم : مثل تحريم بعض أنواع اللحوم ، أو بعض أنواع الأشربة ، أو خروج النساء بدون حجاب .

وأمر الطقوس السائدة فى البلاد « الأوقيانوسية » معروف مشهور : فهى تعتبر من الآثام ما قد يظهر لنا طبيعيًّا ، بل- فوق ذلك-ما يظهرضروريًّا : إنها تحرِّم تناول الطعام تحت السقف ، والمكث فى المسكن إذا كان المرء مريضاً ، واستعمال الأيدى فى التغذية ، بعد فراغ المرء من حلق شعره ، أو بعد فراغه من صنع زورق .

---

(١) ، (٢) المصدر السابق .

على أن الدلالة العميقة ، إنما هى مظاهر اختلاف الضمير فى البيئة الواحدة ، وفى الجماعة الواحدة ، المتحضرة المتمدينة .

وهل الرأسمالى الذى يدافع عن نظام الميراث أقل إخلاصاً من الشيوعى الذى يهاجمه ؟ أو هل الديمقراطى الذى يقرر ضرورة الانتخاب العام أقل إخلاصاً من الأرستقراطى الذى يعلن عدم ملاءمة هذا النظام ؟

وهل (فيلانت) - عندما يبيح أنواعاً من الكذب - أقل اقتناعاً برأيه من (ألسست) عندما يحرِّمها ؟

وإن (شارلوت كردى) عندما قضت على حياة (مارا) كانت ترى -ولا شك -أنها إنما تقوم بعمل أخلاقى عظيم بلا مراء . فهل المواطنون ، الذين ساقوها إلى المقصلة ، كانوا أقل إيماناً منها بالقيمة الأخلاقية لعملهم هذا ؟ »[1] .

هذه الأمثلة التى ذكرها الأستاذ «أندريه كريسون » إنما هى قطرة من بحر ، مما يمكن أن يبرهن به على اختلاف الضمير، بحسب اختلاف الزمن ، أو اختلاف الثقافات فى البيئة الواحدة .

وهناك أمثلة لا تحصى إذا قارنَّا ضمائر العرب فى العصر الجاهلى بضمائرهم فى العصر الإسلامى ، أو ضمائر الوثنيين فى مكة بضمائر المسلمين فيها عند نشأة الإسلام ، أو إذا قارنَّا ضمائر المتفرنجين فى مصر فى العصر الحاضر بضمائر المحافظين فيها !!

والنتيجة لكل هذه المقارنات هى : أن اتخاذ الضمير كأساس للأخلاق أو كمقياس لها ، إنما هو مجرد حماقة وعبث .

ومن الشُّبَهِ التى جعلت الناس يؤمنون بمنزلة كبرى للضمير ويرفعونه : أنه قد شاع بين بعض الطوائف أن الضمير قوة فطرية معصومة بطبيعتها ، ولكن هذه الدراسة السابقة تؤدى بنا لا محالة إلى أن الضمير قوة فطرية حقًّا ولكنها قوة غير معصومة لأنها تُربَّى وتُكتسب فيما يتعلق باللون الذى تتخذه .

---

(١) المصدر السابق .

وهى وإن كانت قوة فطرية إلا أنها تتلون بحسب ما تتغذى به من ثقافة ، ومن وراثة ، وهى تختلف فى الفرد الواحد بحسب اختلاف سِنِّه، وبحسب تنقُّله من بيئة إلى بيئة ، وبحسب الكتب التى تمدُّه بالثقافة العقلية، أو التهذيب الروحى، وبحسب اختلاف الأصدقاء الذين يلازمهم الإنسان فى حياته الواحد تلو الآخر .

الضمير- إذن - متأرجح متقلِّب ، لا يستقر له قرار ، لأنه حتى لو مكث على حالة واحدة تجاه مسألة معينة، فإنه فى هذه الحالة النادرة يتأرجح أيضاً ، قوةً وضعفاً ، واتزاناً وإسرافاً .

الوضع الصحيح- إذن - بالنسبة لأساس الأخلاق : أن نلجأ إلى الدين ، نستمد منه الهداية والإرشاد ، فإنه هو وحده : المعصوم.

والدين الإسلامى قد أتى فى الجانب الأخلاقى بكل ما تتطلبه النفوس المرهفة، والأفئدة المتعطشة للاستقامة ؛ لقد أقرَّ بذلك كبار الفلاسفة الإسلاميين (كابن سينا وغيره) .

لقد رأى ابن سينا أن الدين الإسلامى قد أتى بأكمل نظام أخلاقى تشريعى بالنسبة للمجتمع ، وبالنسبة للأسرة ، وبالنسبة للفرد ، وتحدَّث ابن سينا عن ذلك غير مرة فى مختلف كتبه .

أما صلة الدين بالضمير ، فإنها صلة هيمنة وتوجيه وإرشاد وسيطرة ، إنها صلة هيمنة تستمر مدى الحياة ، وإذا زالت هذه الهيمنة فى أى فترة من فترات الحياة فإن الضمير يختل اتزانه وتوازنه ، ويتأرجح ويتذبذب ؛ لأنه يحتاج باستمرار إلى القائد المربِّى ، وليس هذا القائد المربِّى إلا « الدين ».

* * *